# فوق الآدميـــة

## الاسراء والمعراج

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

---

من أعجب ما اتفق لى أنى فرغتُ من تسويد هذا المقال ثم أردتُ نقله فتعسّرَ علىّ وصُرِفتُ عنه بألم شديدٍ اعترانى ونالنى منه ثِقْلةٌ فى الدماغ (١) ؛ ثم كشفه الله بعد يوم فراجعتُ الكتابةَ ، فاذا قلبى ينبعث بهذه الكلمات :

كيف يَستَوْطِيءُ المسلمون العجزَ ، وفى أول دينهم تسخيرُ الطبيعة ؟

كيف يَستَمْهِدون الراحةَ ، وفى صدر تاريخهم عملُ المعجزة الكبرى ؟

كيف يَرْكَنُونَ إلى الجهل ، وأولُ أمرهم آخرُ غايات العلم ؟

كيف لا يحملون النورَ للعالم ، ونبيُّهم هو الكائنُ النورانىُّ الأعظم ؟

* * *

قصة الاسراء والمعراج هى من خصائص نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، هذا النجم الانسانىُّ العظيم ، وهذا النور المتجسِّد لهداية العالم فى حَيرة ظُلماته النفسية ؛ فان سماءَ الانسان تُظلم وتُضيء من داخله بأغراضه ومعانيه . والله تعالى قد خلق للعالم الأرضى شمساً واحدةً تُنيره وتُحييه وتتقلب عليه بليله ونهاره ، بيد أنه ترك لكل انسان أن يصنع لنفسه شمسَ قلبه وغمامَها وسحائبها وما تُسفِر به وما تُظلم فيه . ولهذا سُمى القرآن نورا لعمل آدابه فى النفس ، ووُصف المؤمنون بأنهم « يسعى نورُهم بين أيديهم وبأيمانهم » ، وكان أثر الايمان والتقوى فى تعبير القرآن الكريم أن يجعل الله للمؤمنين نورا يمشون به

ولقد حار المفسرون فى حكمة ذكر «الليل» فى آية «الاسراء» من قوله تعالى : « سُبحانَ الذى أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركْنا حوله لنُريه من آياتنا » . فان السُّرى فى لغة العرب لا يكون إلا ليلا ؛ والحكمة هى الاشارة إلى أن القصة قصةُ النجم الانسانى العظيم التى تحول من انسانيته إلى نوره السماوى فى هذه المعجزة ، ويتمم هذه العجيبةَ أن آيات « المعراج » لم تجئْ إلا فى سورة « والنجم »

وعلى تأويل أن ذكر ( الليل ) إشارةٌ إلى قصة النجم ، تكون الآية برهان نفسها ، وتكون فى نَسَقها قد جاءت معجزة من المعجزات البيانية . فاذا قيل إن نجما دار فى السماء ، أو قطع ما تقطعه النجوم من المسافات التى تعجز الحساب ، فهل فى ذلك من عجيب ؟ وهل فيه شك أو نظرٌ أو تردد ؟ وهل هو إلا من بعض ما يسبِّح الله بذكره ؟ وهل يكون إلا آية اتصلت بالآيات التى تراها اتصالَ الوجود بعضه ببعض ؟

وأنا ما يكاد ينقضى عجبى من قوله تعالى : «لنُريه من آياتنا» مع أن الألفاظ كما ترى مكشوفة واضحة ، يخيَّل اليك أن ليس وراءها شيء ، ووراءها السرُّ الأكبر ؛ فانها بهذه العبارة نصٌّ على اشراف النبي صلى الله عليه وسلم فوق الزمان والمكان يرى بغير حجاب الحواس مما مرجعُه إلى قدرة الله لا قدرة نفسه ، بخلاف ما لو كانت العبارة ( ليرى من آياتنا ) فان هذا يجعله لنفسه فى حدود قوتها وحواسها وزمانها ومكانها ، فيضطرب الكلام ويتطرق اليه الاعتراض ولا تكون ثَمَّ معجزة . وتحويلُ فعل ( الرؤية ) من صيغة إلى صيغة كما رأيت هو بعينه إشارة إلى تحويل الرائى من شكل إلى شكل كما ستعرفه ، وهذه معجزة أخرى يسجد لها العقل ؛ فتبارك الله مُنزِلُ هذا الكلام !

وإذا كان صلى الله عليه وسلم نجما إنسانياً فى نوره فان يأتى هذا إلا من غلبة روحانيته على مادته ؛ وإذا غلبت روحانيته كانت قواه النفسية مهيأة فى الدنيا لمثل حالتها فى الأخرى ؛ فهو فى هذه المعجزة أشبه بالهواء المتحرك . فقل الآن : أيعترضُ على الهواء إذا ارتفع بأنه لم يرتفع فى طيارة . . . ؟

ومن ثَمَّ كان الانسان إذا سما درجةً واحدةً فى ثبات قواه الروحية ، سما بها درجاتٍ فوق الدنيا وما فيها ، وسُخِّرت له المعانى التى تسخِّر غيره من الناس ، ونشأت له نواميسُ أخلاقيةٌ غير النواميس التى تتسلط بها الأهواء . ومتى وُجد الشيء من

---

(١) لما اعترانى هذا كتبت للأستاذ الزيات أخبره به ليعلم أن المقال سيتأخر عن موعده

الأشياء كانت طبائع وجوده هي نواميسه . فالنارُ مثلاً إذا هي تضرَّمت أوجدت الاحراق فيما يحترق ، فان وضع فيها مالا يحترق أبطل نواميسها وغلب عليها

وكل معجزة تحدث فهذا هو سبيلُها فى إيجاد النواميس الخاصة بها وإبطال النواميس المألوفة ، وبهذا يقال إنها خرقت العادة ؛ ومن النور نورٌ لا يشفُّ له غيرُ الهواء ، ومنه أشعة (رنتجن) التى تشف لها الجدرانُ والحجب ؛ فهذه معجزة فى ذاك

* * *

والنبي لا يكون نبياً حتى يكون فى إنسانه إنسانٌ آخر بنواميسَ تجعله أقربَ إلى الملائكة فى روحانيتها ؛ وما ينزل إنسانُه الظاهرُ من الانسان الباطن فيه إلا منزلةَ من يتاق ممن يُعطى . فذاك الباطنُ هو للحقائق التى لا تحملها الدنيا ، وهذا الظاهر لما يمكن أن يبلغ إليه الكمالُ فى المثل الانسانى الأعلى ، ولولا ذلك الباطن ما استطاع نبي من الأنبياء أن يحمل هموم أمة كاملة لا تضنيه ولا تثيره ولا تعجزه

فحقيقةُ النبوَّة أنها قوةٌ من الوجود فى انسان مختار جاءت تصلح الوجود الانسانىَّ به لتُقرَّ فى هذه الحيوانية المهذَّبة مثلها الأعلى ، بدلالتها على طريقها النفسىِّ مع طريقها الطبيعى ؛ فيكون مع الانحطاط الرقىّ ، ومع النقص الكمال ، ومع حكم الغريزة التحكم فى الغريزة ، ومع الظلمة المادية الاشراقُ الروحانى

وما المعجزات إلا شأنُ تلك القوة الباطنة لا شأنُ إنسانها الظاهر . ومن الذى ينكر أن قوى الوجود هى فى نفسها إعجاز للعقل البشرى ؟ وهل ينكر اليوم أحد شأنَ هذه القوة فى (الراديو) حين مسته بجملت الكلمة التى ترسل بين الشرق والغرب ، كالكلمة بين اثنين يتحدثان فى مجلس واحد ؟

ونحن نرى معجزات التنويم المغناطيسى وما يبصره النائم وما يسمعه وما ينكشف له مما وراء الزمان والمكان ؛ وليس التنويم شيئاً إلا تسليط الذات الباطنة بقواها الروحية العجيبة على الذات الظاهرة المقيدة بحواسها المحدودة ، فتطغى عليها فتصبح الحواس مطلقة شائعة فى الوجود بمقدار مافيها من قواه لا بمقدار ما فيها من قوة شخصها ، وعلى نحو من ذلك يتصلُ الرجل الروحانىُّ بذاته الباطنة ، فيوقع شخصه الظاهر فى الاستهواء ، فينكشف له الوجود ويبصر ما يقع على البعد ويرى ما هو آت قبل أن يأتى . وما الكون فى هذه الحالة إلا كالمعشوق يقول لعاشقه الذى وقع فى قلبه الحب : قد آتيتك نوراً تنظر به جمالى

* * *

وفى علماء عصرنا من يفكر فى الصعود إلى القمر ، وفيهم من يعمل للمخاطبة مع الأفلاك ، وفيهم من تقع له العجائب فى استحضار الأرواح وتسخيرها . وكل ذلك أول البرهان الذى سَيُلزِمُ الفم فيضطره فى يوم ما إلى الاقرار بصحة الاسراء والمعراج . .

ونحن قبل أن نبدى رأينا فى القصة نُلِمُّ بها إلمامةً موجزة ؛ فقد اختلفت فيها الأحاديث ووقع فيها تخليط كثير فجاءت فنوناً وأنواعاً من طرق شتى حتى جمعها بعضهم فى جزءين[1] ، وما تحتمل كل ذلك ولا بعضه ؛ ولكن روح الرواية فى ذلك الزمن كانت كروح الصحافة فى هذا العصر ، متى قارت فَوْرَها استحدثت من كل عبارة عبارة أخرى ، وعلى هذه الطريقة تخرج من العبارتين عبارة ثالثة ، فيكون الأصل معنى واحداً وإذا هو يَمُدُّ من يمينه ويساره

ولا يرون بذلك بأساً فانهم يَشُدُّون به الرأى ويضاعفون منه اليقين ، ويزيدون ضوءاً فى نور المعنى ، وما داموا قد أثبتوا الأصل واستيقنوه فلا حَرَجَ ألَّا يؤيد القولُ بعضُه بعضاً باجتهاد فى عبارة ، واستنباط من أخرى ، وزيادة فى الثالثة — مما هو سبيل منها ، على نحو ما نرى من فن الرواية القصصية ؛ إذ تتعدد الأساليب والعبارات مختلفة متنوعة ، وليس تحتها إلا حقيقة واحدة لا تختلف . والقَصصُ الدينى فى هذه اللغة العربية فنٌّ كامل قائم بنفسه لا يُبدع العقل والخيال والعاطفة أقوى منه ولا أعجب ولا أغرب

هذا فى متن القصة ؛ أما فى واقعها فقد اختلفوا اختلافاً آخر ؛ هل كان الاسراء والمعراج يقظةً أو مناماً ، وبالروح وحدها أو بالروح والجسم معاً ؟ وإنما ذكرنا هذا الخلاف لأنه الدليل القاطع على أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يخبر بشىء من ذلك فلم يعيّن لهم وجهاً من هذه الأوجه . والحكمة فى ذلك

(١) قال الذهبي : إن الحافظ عبد الغنى جمع أحاديث الاسراء فى جزءين

أن عقولهم لم تكن تحتمل الادراك العلمي الذي أساسه الكهرباء والأثير . .

والخلاصة التي تتأدّى من القصة : أنه صلى الله عليه وسلم كان مضطجعاً فأتاه جبريل فأخرجه من المسجد فأركبه البُراق فأتى بيت المقدس ثم دخل المسجد فصلى فيه ، ثم عرج به إلى السموات فاستفتحها جبريل واحدة واحدة ، فرأى فيها من آيات ربه ، واجتمع بالأنبياء صلوات الله عليهم ، وصعد في سماء بعد سماء إلى سدْرة المنتهى ، فغشيها من أمر الله ما غشيها ، فرأى صلى الله عليه وسلم مظهر الجمال الأزلي ، ثم زُجَّ به في النور فأوحى الله إليه ما أوحى

أما وَشْي القصة وطرازُها فبابٌ عجيب من الرموز الفلسفية الانسانية التي يُرمز بها إلى تجسيد الأعمال في هذه الحياة ، تكون تعباً وتقع فائدة ، أو تُلتمس منفعة وشهوة وتقع مضرّة وحماقة ، ثم تفنى من هذه وتلك الصُّور الزمنيةُ التي توهّمها أصحابها ، وتخلد الصور الأبدية التي جاءت بها حقائقها

ومن هذه الرموز البديعة قوله : فجاءني جبريل بإناء من خمر وإناء من لبن ، فأخذت اللبن ، فقال جبريل أخذت الفطرة . وإنه مرّ على قوم يزرعون ويحصدون في كل يوم كلما حصدوا عاد كما كان ؛ فسأل ما هذا ؟ قال جبريل : هؤلاء المجاهدون في سبيل الله تضاعَفُ لهم الحسنة بسبعمائة ضعف . ثم أتى على قوم تُرضَخُ رءوسُهم بالصخر ، كلما رُضِخَت عادت كما كانت ولا يُفتَر عنهم من ذلك شيء . فقال ما هذا ؟ قال جبريل : هؤلاء الذين تثاقل رءوسهم عن الصلاة . ثم أتى على قوم بين أيديهم لحمٌ نضيج في قِدر ، ولحمٌ آخر نيءٌ في قدر خبيث ، فجعلوا يأكلون من النيءِ الخبيث ويَدَعون النضيج . فقال ما هؤلاء ؟ قال جبريل : هذا الرجل تكون عنده المرأةُ الحلالُ الطيّب فيأتي امرأة خبيثة ، والمرأة تقوم من عند زوجها حلالاً طيباً فتأتي رجلاً خبيثاً . ثم أتى على رجل قد جمع حُزمةً عظيمةً لا يستطيع حملَها وهو يزيد عليها ، فقال : ما هذا يا جبريل ؟ قال هذا الرجل تكون عليه أماناتُ الناس لا يقدر على أدائها وهو يريد أن يحمل عليها . ثم رأى نساءً معلّقاتٍ بثديّهن ، فسأل ، فقال جبريل : هؤلاء اللاتي أدخلن على الرجال من ليس من أولادهم

* * *

ونحن على الرأي الذي عليه جمهور العلماء من أن الاسراء والمعراج كانا بالجسم والروح معاً على التأويل الذي سنبينه . ويثبت ذلك قوله تعالى في سورة ( والنجم ) : « إذ يغشى السِّدرةَ ما يغشَى ، ما زاغ البصرُ وما طغى » . فلا يكون البصر يزيغ ويطغى إلا في الجسم ولا ينتفي عنه ذلك إلا وهو في الجسم . ولم يتنبه أحد من المفسرين إلى المعنى المعجز العجيب في قوله ( وما طغى ) ؛ فذلك نص على أنه كان يرى بجسم قد تحول عن الطبيعة الآدمية المحدودة فليس فيه منها شيء ، إذ لا يكون طغيان البصر إلا من تسلط الخيال عليه بأهواء الجسم التي لا يستقيم بها حكم على حقيقته ، فما زاغ البصر بكونه مقيد الحاسة ، ولا طغى بكونه مطلق الخيال ، بل كان كما يُريه الله من آياته ، أي كان حقيقةً كونيةً في غير حالتها الأرضية الناقصة

والذين قالوا إن الاسراء والمعراج كانا رؤيا رآها النبي صلى الله عليه وسلم ؛ احتجوا لذلك بقوله تعالى : « وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس » وقد خلط المفسرون في هذا أيضاً ، وإنما كان التعبير بلفظ « الرؤيا » وهي التي تكون مناماً ، لما في تأثير الحواس على الرائي واثبات أن الطبيعة الآدمية بجملتها كانت فيه كالنائمة عن حياتها الأرضية بحقائقها وأخيلتها معاً فليس نائماً كالنائم ولا مستيقظاً كالمستيقظ

وفي أساس القصة جبريل والبراق ؛ وهما القوة الملائكية ، والقوة الطبيعية ، أو الروح الملائكي والروح الطبيعي ، ولم يوصف البراق بأنه دابة إلا رمزاً إذ لا يأتي للعرب أن يفهموا ما يراد منه وعندنا أنه سمي البراق من البرق ، وما البرق إلا الكهربائية ، وهذا هو المراد منه . فتلك قوة كهربائية متى نَبَضت جمعت أول العالم بآخره . وهذه هي الحكمة في أن آية الاسراء لم تذكر أنه كان محمولاً على شيء إذ لم يكن محمولاً إلا على الروح الأثير

وما دامت القوةُ الملائكية والقوة الطبيعية قد سُخرتا له صلى الله عليه وسلم فلا معنى لأن يكون ذلك للروح وحدها ، بل اجتماعهما معاً في القصة دليل على أن سر المعجزة إنما كان في تيسير ملاءمة جسمه الشريف لهاتين الحالتين ؛ فيتحول في صورة كونية ملائكية بين سر الملك وسر الطبيعة ، وحينئذ لا تجري عليه أحكامُ الحواس ولا أحكام المادة

ومن الممكن أن تتحول الأجسام إلى حالتها الأثيرية في بعض

الأحوال الخارقة ، وبهذا يعلل طىّ الأرض لبعض الروحانيين وتعلل خوارق كثيرة مما يحدث فى استحضار الأرواح لهذا العهد ومما يأتيه فقراء الهند ، ومما كان يصنعه « لاهوديني » الأمريكي إذ كانوا يغلّلونه بالسلاسل والقيود ثم يرونه طليقاً ؛ ويحبسونه فى السجون المحصّنة يقوم عليها الحراس وتُحكم فيها الأبواب والجدران ، ثم يجدونه فى بعض الفنادق

وليس للعقل أن ينكر شيئاً من هذا ونحوه فان تركيب الطبيعة ردٌّ عليه ، ونقصه هو ردٌّ على نفسه ، والمستحيل على الأعمى هو أيسر الممكنات على المبصر

فأنت ترى أن ذكر البراق والملك فى أساس قصة الاسراء والمعراج هو صلة القصة بالمعجزة وهو عينه صلتها بالبرهان العلمى ولو لم يكونا فيها لما كان لها تفسير

* * *

والقصة بعد ذلك تثبت أن هذا الوجود يرق ويتكشف ويستخفى كلما سما الانسان بروحه ، ويغلظ ويتكاثف ويتحجب كلما نزل بها ، وهى من ناحية النبي صلى الله عليه وسلم قصةٌ تصفه بمظهره الكونى فى عظمته الخالدة كما رأى ذاته الكاملة فى ملكوت الله ، ومن ناحية كل مسلم من أتباعه ، هى كالدرس فى أن يكون لقلب المؤمن معراجٌ سماوىٌ فوق هذه الدنيا ليشهد ببصيرته أنوار الحق ، وجمالَ الخير ، وتجسُّد الأعمال الانسانية فى صورها الخالدة ؛ فيكون بتدبره القصة كأنما يصعد إلى السماء وينزل ؛ فيستريح إلى الحقائق الأساسية لهذه الحياة فيدفع عن نفسه بذلك وتعقُّد الأخيلة الذى هو أساس البلاء على الروح

ومتى استنار القلبُ كان حياً فى صاحبه وكان حياً فى الوجود كله . ومتى سلمت الحياة من تعقيد الخيال الفاسد لم يكن بين الانسان وبين الله إلا حياةٌ هى الحق والخير ، ولم يكن بينه وبين الناس إلا حياةٌ هى الرحمةُ والحبُ ما ؟

(طنطا) مصطفى صادق الرافعي

---

إلى خ . خ . د : من أجلك وضعت حتى أنا فى مقالات (الجمال البائس) وفى السنة الماضية كتبت مقالة (سمو الحب) وهى فى الرسالة فارجع إليها ؛ ثم إن تعرض لك إبليس بعد أن تكون قرأت هذه المقالات وتدبرتها فاشكه الى أنصفك منه على شرط أن تشكو الى البوليس تلك المرأة التى يظهر لك بوجهها .... كما يؤخذ من كتابك الرافعى

# ١ – مدينة الزهراء

## وعمائرها الملوكية القصيرة

## للأستاذ محمد عبد الله عنان

---

قرأنا منذ حين فى بعض الأنباء الخارجية أن بعض الهيئات الأثرية فى اسبانيا تعنى بالبحث لاكتشاف معالم مدينة الزهراء الأندلسية ، وأنها قد وفقت بالفعل إلى اكتشاف بعض أسس قديمة فى ضاحية قرطبة يظن أنها من أسس قصر الزهراء ؛ وجدير بمثل هذا النبأ أن يثير شجناً فى نفس أولئك الذين يستعرضون تاريخ الأندلس ، وتاريخ قاعدتها الملوكية الشهيرة التى غاضت من صفحة الوجود حتى لم يبق من أطلالها اليوم ما يدل على مواقعها ومعالمها

كانت الزهراء من أعظم القواعد الملوكية التى عرفها التاريخ ، ولكنها لم تعمر طويلاً ولم تقم فى تاريخ الأندلس بدور ذى شأن ، ولم ينزلها سوى مؤسسها الناصر وولده الحكم وابنه المؤيد ، ولم تعمر كقاعدة ملوكية أكثر من نصف قرن ؛ ومن غرائب القدر أنه فى الوقت الذى أكملت فيه الزهراء فى عهد الحكم المستنصر ، وضعت أسس قاعدة ملوكية إسلامية جديدة قدر لها أن تؤدى فى تاريخ الاسلام وتاريخ الحضارة الاسلامية أعظم دور ؛ تلك هى القاهرة المعزية التى أخذت تفتتح عظمتها وبهاؤها فى نفس الوقت الذى ذوت فيه عظمة الزهراء وعصفت بها حوادث الدهر ؛ ولم تكن الزهراء أول قاعدة ملوكية فى الأندلس ، ولم تكن القاهرة أول قاعدة ملوكية اسلامية فى الشرق أو فى مصر ، فمن قبل أنشأ هشام بن عبد الملك رصافة الشام لتكون منزلاً ملوكياً لبنى أمية ، وأنشأ المعتصم سامرّا لتكون منزلاً له ولعقبه من بنى العباس ، وأنشأ ابن طولون مدينة القطائع بمصر لتكون له ولعقبه قاعدة ملوكية إلى جانب الفسطاط عاصمة مصر الاسلامية ؛ وفى الأندلس أنشأ عبد الرحمن بن معاوية مؤسس ملك بنى أمية بالأندلس ضاحية ملوكية فى قرطبة سماها الرصافة تشبهاً برصافة جده هشام ؛ وسطعت كل من هذه القواعد